علم الأسلوب – كاتجاه نقدي حديث-
وعلاقته بالإحصاء

عايـدة سعدي
المركز الجامعي محمد الشريف
مساعدية – سوق أهراس

ملخص:
إن التمييز بين المفاهيم المصطلحية تعد من الضرورة بما كان،خاصة إذا تعلق الأمر بميدان الأدب ونقده،فعلى سبيل المثال نجد أن مصطلح النقد الأدبي اختلف مفهومه عند النقاد المحدثين عن مفهوم مصطلح النقد العربي رغم ما يبدوبينهما في الظاهر من تشابه،إذ نجدهم يطلقون مصطلح النقد الأدبي على كل ما له علاقة بالنقد الحديث، في حين يطلقون مصطلح النقد العربي على كل ما له علاقة بالتراث النقدي القديم.

كما أن هناك بونا شاسعا في تناول كل من المفهومين للنص الأدبي، فإذا كان النقد العربي لا يتعرض للعمل الأدبي إلا لماما دون إحاطة بالعمل الإبداعي ككل،إلى جانب تدخل الأهواء والانطباعية الذاتية في النقد،فإن النقد الأدبي أكثر شمولية وإحاطة بعناصر الأدب،كما أنه أكثر ارتكازا على مختلف المعارف والثقافات المتنوعة من أجل ضمان سبر أغوار النص الأدبي

وبما أن المنهج الأسلوبي يعد واحدا من المناهج النقدية الحديثة التي طرقت النص بعيدا عن الذاتية، فإننا سنتناول في هذا الصدد علاقة الإحصاء بالأسلوبية، وذلك بوصف الإحصاء واحدا من العلوم التكنولوجية في طرق النص الأدبي، ودوره في كشف أبعاده الدلالية.

يعد المنهج الإحصائي منهجا هاما، وذلك لما له من دور في تحقيق موضوعية النص الأدبي، إذ هوقمة ما توصل إليه النقد الأدبي في مجال علم الأسلوب، نظرا لبعده عن الذاتية، فالأسلوبية الإحصائية تهدف إلى تحديد الملامح الأسلوبية للنص عن طريق الكم، بعيدا عن التخمين والحدس،كما يمتاز بقدرته الواضحة على الهيمنة على الظاهرة الأدبية أي على البنى النصية الموجودة في النص.

وبذلك تعمل الأسلوبية الإحصائية في نطاق النص على إبعاد العوامل المعرقلة لدراسة النص كعلاقة النص بواقعه مثلا.

وقد تباينت الآراء في تقبل الإحصاء العددي في مجال الدراسة الأسلوبية للنصوص الأدبية، إذ هناك من يرى أن دخول الدراسة الإحصائية في مجال علم الأسلوب يمكن من تشخيص البنى الأسلوبية وتوضيح الفروقات بينها، كما أن الإحصاء يضمن تحقيقا موضوعيا للدراسة، إلى جانب التمييز بين السمات اللغوية التي يمكن عدها خواصا أسلوبية، وبين تلك السمات التي ترد عشوائيا داخل النص الأدبي.

إن الإحصاء يدرس الانزياحات اللغوية فيرصدها ثم يقيسها، وأخيرا يؤولها انطلاقا من بيانات دقيقة محددة بالأرقام والنسب بشرط اتسامها بنسبة عالية من التكرار، دون إغفال أهمية السياق في ذلك.

وقد تنبه العديد من العلماء المحدثين لأهمية المنهج الإحصائي في الدراسة الموضوعية للنصوص من أمثال جان كوهين
وبيير جيروغيرهما كثير.

لكن إلى جانب تلك الأهمية المتعلقة بالمنهج الإحصائي من عقلنة للذوق،والبعد عن الذاتية في الحكم النقدي إلا أن هناك من يقف موقفا معارضا، باعتبار أن الدراسة الإحصائية تحيل النص الأدبي إلى ظاهرة علمية جامدة وبأن لا طائل وراء الإحصاء،
وأن ما يدرك بالإحصاء قد يدرك بالعين المجردة، وأنه لا يراعي التأثير السياقي للنص الذي يعد مطلبا مهما من مطالب التحليل الأسلوبي.

إن المنهج الإحصائي –حسب هؤلاء–في الدراسة الأسلوبية للنصوص الأدبية يعد مصادرة خطيرة للذوق النقدي الجمالي، بل إنه يحيل الدراسة إلى ضرب من ضروب الرياضيات البحتة.

لكن وبالرغم من تباين الآراء حول المنهج الإحصائي في طرق النص الأدبي في نطاق الأسلوبية، إلا أنه لا يمكن إغفال دوره في كشف أبعاد النص الأدبي دلاليا وبصفة موضوعية، لكن شريطة عدم اقتصاره على العمليات الرقمية المجردة،ولعل الجهود المثمرة التي بذلت في هذا المجال تؤكد ذلك.

توطئة:

قبل التطرق إلى علاقة النقد الأدبي مع غيره من العلوم، يحسن بنا – ونحن في هذا المقام-التفرقة بين مصطلحي »النقد العربي »و»النقد الأدبي » ، فقد عني بعض الباحثين المعاصرين باستخدام هذين المصطلحين، فنجدهم يطلقون عادة مصطلح) النقد الأدبي (على كل ما يتصل بالنقد الحديث، في حين يطلقون مصطلح) النقد العربي(على تراثنا من النقد القديم.

على أن التمييز بينهما كان ضروريا، وهوأمر اقتضته سنة التطور وحتميته في مجال النقد، كما فرضتها طبيعة المفاهيم العامة للنقد ([1])

وقد وصلنا المصطلح الجديد من الغرب في مطلع القرن العشرين، فكان نتيجة للترجمة الحرفية للمصطلح العربي . LITERARY CRITISISM

إن التباين بين المصطلحين عائد دون شك إلى طبيعة كل منهما، فالنقد القديم في أغلبه نقد للجزئيات، يتسم بمحدودية وضيق، فلا يتناول الموضوع إلاّ لماما، إلى جانب التعرض للبيت أوالبيتين دون الإحاطة بالقصيدة ككلّ، علاوة على الأحكام الذاتية التي صبغت هذا النقد.

وعليه يمكن القول بأنّ نشاط هؤلاء النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص([2])، كما يعنى(النقد القديم(دوما بالآلات من اللغة والاشتقاق والنحووالصرف والبلاغة الجاقة([3])، فهوبذلك لا يربط بين الأدب واتجاهاته الإنسانية أوالفنية بنظريات عامة([4]).

في حين نجد(النقد الأدبي (أوسع دائرة، وأكثر شمولية لعناصر الأدب، وأكثر ارتكازا على مختلف الثقافات والمعارف المتنوعة، إلى غير تلك الصفات التي تجعل التفريق بين النقد العربي والنقد الأدبي ضرورة حتمية وملحة، ولذا كان الأولى جعل)النقد العربي(للقديم من النقد، و(النقد الأدبي (للحديث منه([5]).

لم يقتصر النقد الأدبي عند العرب والغرب على حد سواء على علوم اللغة والبلاغة والنحووالصرف وغيرها من العلوم المتجانسة مع

---

1 العربي حسن درويش:النقد العربي القديم، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره، القاهرة،النهضة المصرية، دط. دت، ص:16.

2 شوقي ضيف:في النقد الأدبي ، مصر، دار المعارف، دط، 1962، ص: 31.

3 شكري فيصل:مناهج الدراسة الأدبية، القاهرة، مكتبة الخا نجي، دط، 1953، ص: 135.

4 محمد غنيمي هلال:المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، دط، 1958، ص:. 178

5 العربي حسن درويش: النقد العربي القديم، مقايسيه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره، ص: 18.

النقد، بل نجده يتجاوز ذلك إلى معارف وعلوم بعيدة عنه كالفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الجمال، والتاريخ، وعلوم القرآن،باعتبار أن الناقد لابد أن يكون واسع الإطلاع، آخذا بكل علم من طرف، وذلك دون شك يساهم أيما مساهمة في طرق النص الأدبي وسبر أغواره، ذلك أن واقع النقد الأدبي هوواقع الانفتاح على بقية حقول المعرفة.

وسنحاول ونحن في هذا الصدد أن نتبين علاقة » الإحصاء « بالأسلوبية – باعتبارها اتجاها من بين الاتجاهات النقدية التي ظهرت حديثا، وأهمية الإحصاء - بصفته واحدا من العلوم التكنولوجية - في تحليل النص وكشف أبعاده الدلالية على تنوعها تبعا لتلك القيم العددية.

يعّد المنهج الإحصائي قمة ما توصل إليه النقد الأدبي في مجال »الأسلوبية « لما له)الإحصاء(من هدف ودور فعّال في إضفاء وتحقيق الجانب الموضوعي، وهويقترب بذلك من منهجي العلم التجريبي

والرياضي، مبتعدا بذلك عن نطاق الذاتية والانطباعية التي اتصفت بها غالبا الأحكام النقدية([1]).

إنها أي الأسلوبية الإحصائية تحاول أن تصل إلى تحديد الملمح الأسلوبي للنص عن طريق الكم، وهي بالتالي تقوم على إبعاد الحدس وذلك لصالح القيم العددية([2])،أي أنها تعمل على تخليص ظاهرة «الأسلوب»من الحدس الخالص، فتستبدله بحدس منهجي موجه، كما يمكن لهذا المنهج أن يكمل مناهج أسلوبية أخرى بفعالية([3])، إنه «ليس أكثر من إجراء منهجي يقع داخل المنهج الواحد، ويمكن أن يستعين به أي منهج. ..فهومجرد منهج مساعد،لأنه يفتقر إلى كثير من المقومات المنهجية، كالاستقلالية والقدرة على الانتشار والهيمنة على الظاهرة (الأدبية)، والقدرة على الاختراق الشامل للبنية النصية، لا سيما تلك البنى التي يصعب إخضاعها للقياس الكمّي.

لقد استوطن الإحصاء سائر الحقول المنهجية في سياق غزوالعلوم التجريبية ومناهجها الإنسانية تحت وطأة التفكير الوضعي

---

1 شفيع السيد: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، دت، ص: 175.

2 فرحان بدري الحربي:الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، بيروت، مجد، ط1، 2003، ص:19.

3 هنريش بليث:البلاغة والأسلوبية، نحونموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، افريقيا الشرق، دط، دت، ص: 60.

المناهض لـ (خرافة الميتافيزيقا)!، ووجد لنفسه منافذا متعددة في دراسة الظاهرة الأدبية. ..»([1]).

وقد أبعدت الدراسة الإحصائية للنصوص الأدبية تلك العوامل التي يحتمل أن تعقد العمل كالتطور التاريخي وعلاقته بالنص والواقع، فالتواصل النصي نجده قد اختزل في السنن اللساني بمختلف مكوناته وتأليفاته([2]).

لقد استحسن الكثيرون دخول الدراسة الإحصائية إلى مجال علم الأسلوب باعتبار أن البعد الإحصائي في أي علم يعد من بين أحد المعايير الموضوعية التي يمكن من خلالها تشخيص الأساليب، وتمييز الفروق بينها.

إن أهمية المنهج الإحصائي تعود إلى أنه يحقق بعدا موضوعيا في الدراسة، كما يمكن بواسطته تحديد الملامح الأساسية للأساليب، أوفي التمييز بين السمات والخصائص اللغوية التي يمكن اعتبارها خواصا أسلوبية وبين تلك السمات التي يأتي ورودها في النص ورودا عشوائيا([3]).

هذا، ونجد "بييرجيرو»يؤكد على أن "... الإحصاء لا يتوانى عن فرض نفسه أداة من الأدوات الأكثر فعالية في دراسة الأسلوب"([4]).

وفي نطاق مفهوم الانزياح يتجلى مدى الارتباط الوثيق بين الأسلوبية والإحصاء، وبما أن الأسلوبية هي في جوهرها علم الانزياحات اللغوية، فإن الإحصاء – تبعا لذلك– هوالعلم الذي يدرس هذه الانزياحات اللغوية، فيسمح بالتالي بملاحظتها ورصدها وقياسها وتأويلها.

إن دراسة الأسلوب إذن من الناحية الإحصائية تفترض توفر طريقتين:إحداهما تشخيص الواقعة، والثانية قياسها، كما لا تعد كل الانزياحات داخلة في نطاق عناصر الأسلوب، ويمثل «جان كوهين»لذلك بقوله أن «وفرة الكلمات الوحيدة المقطع في الشعر بالقياس إلى النثر لا تعني بالضرورة أن للكلمات القصيرة أسلوبية،فقد لاتكون هذه الواقعة إلا نتيجة لما
توفره الكلمات القصيرة من سهولة الوزن، إنها ليست إذن إلا نتيجة للواقعة الوزنية التي تعتبر وحدها مميزا شعريا"([1]).

---

1 يوسف وغليسي:مناهج النقد الأدبي، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص: 120.

2 هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية:ص59.

3 سعد مصلوح:الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، القاهرة، عالم الكتب، دط، دت، ص: 51.

4 بييرجيرو: الأسلوب والأسلوبية، تر:منذر عياشي، لبنان، مركز الإنماء القومي، دط، دت، ص:86.

ويذهب أيضا "كوهين»إلى أن «وجود انزياح ذي تردد دال إحصائيا، (إذ) هووحده الكفيل بالسماح بتحويل ما كان في مستوى الحدس وكذا العاطفة (من) مجرد فرضية، إلى حقيقة واقعة"([2]).

وتعود أهمية العمل الإحصائي إلى كونه يقدم بيانات دقيقة ومحددة بالأرقام والنسب لسمة لغوية أوأكثر التي يتميز بها نص أدبي ما، ونجمل أهم هذه السمات فيما يلي:

1- استخدام مفردات معجمية معيّنة.

2- الزيادة أوالنقص النسبيان في استخدام صيغ معينة، أونوع معين من الكلمات (صفات، أفعال، ظروف، حروف جر...إلخ).

3-طول الكلمات المستخدمة أوقصرها.

4-طول الجمل.

5-نوع الجمل (اسمية، فعلية، بسيطة، مركبة، إنشائية، خبرية. ..إلخ).

6-إيثار تراكيب أومجازات واستعارات معينة.

وهذه السمات اللغوية إذا ما حضيت بنسبة عالية من التكرار، وإذا ما ارتبطت بسياقات معينة على نحوله دلالته، فإنها تصبح خواصا أسلوبية تظهر في النصوص بنسب وتوزيعات وكثافة معينة([3])، إضافة إلى ذلك نجد أن الطريقة الإحصائية تعنى "بالكلمات المفاتيح»من حيث نسبة ورودها قياسا إلى الكلمات،

وكذا الربط بينها وبين عقلية المبدع، وقد يعتمد المحلل الأسلوبي على الإدراك المباشر في الحكم على توافر سمة أسلوبية على نحومؤثر، مثلما كان الشأن مع العرب القدامى في مجال موسيقى الشعر وكذا ظواهرها.

وقد يلجأ المحلل الأسلوبي للقيام بإجراء عملي معتمدا على الحاسب الآلي، وإن كان استخدامه غالبا غير مجد؛ ذلك لأن ورود الكلمات المفاتيح على سبيل المثال عشرين مرة أوأكثر لا يغير من طبيعة الحكم عليها، كما لا يلتفت بها أيضا عن وظيفتها([4]).

---

1 جان كوهن:بنية اللغة الشعرية، تر:محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، دط، دت، ص: 17.
2 المرجع نفسه.
3 شفيع السيد: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، ص:176.
4 عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، مدينة نصر، الدار العربية، دط، 2001، ص، ص:267، 268.

ومما سبق يتبين لنا أهمية الإحصاء في دراسة العمل الإبداعي، بل إن«ل. دوليجيل « L.DOLEZEL» » اعتبره «خلفية ضرورية لأي نظرية أسلوبية"([1]).

ومع اعتبار الإحصاء إجراء منهجي مجرّد، يمكن لأي منهج أن يستوعبه، فهويستهدف "تكميم الظاهرة الأدبية وعلمنة المنهج النقدي، فيقوم الناقد بتصنيف النص إلى «عينات»كل عينة منها تشتمل على ظاهرة فنية معينة، تسعى إلى رصدها إحصائيا حسب نسبة تواترها وتقارن بنسب أخرى في إطار العينة ذاتها إن هوأراد ذلك، كما يمكنه الاستعانة بالجداول والرسوم البيانية، وحينما ينتهي الإحصاء تبدأ مرحلة تفسير المادة الإحصائية([2]).

وعموما لقد أثار الإجراء الإحصائي جدلا واسعا وحادا في الساحة النقدية، يتنازعه موقفان متعارضان: الأول يفضّله ويدعوإليه بحجة أنه إجراء يتمتع بالموضوعية والدقة العلمية ؛ إذ عدّ»أداة كاشفة ومعينة، ووسيلة منهجية واعدة، وهي قادرة -إن شاء الله- على أن تخطوبنا خطوات فساحا في سبيل عقلنة الذّوق،. ..... والتسويغ المنطقي للأحكام، والتفسير المنضبط للظاهرات الأدبية"([3]).

كما يساعد المنهج الإحصائي على حل المشاكل الأدبية كالتحقق من شخصية المؤلف، وتوثيق نسبة النص الأدبي إلى صاحبه، وكذا فهم التطور التاريخي في كتابات الكتب، كما يلعب دورا كذلك في تحديد الترتيب الزمني لكتابات مؤلف واحد، علاوة على تقديمه بيانات دقيقة ومحددة بالأرقام والنسب لسمة أوأكثر من تلك السمات اللغوية المتعددة لنص أدبي معين([4]).

على أن الموقف المعارض ينبذ الطريقة الإحصائية، داعيا لتجنبها نظرا لإحالتها النص الأدبي إلى ظاهرة علمية جامدة،

ومن سلبياته أنه لا يفضي إلى شيء ذي بال، فقد تكون تلك النتيجة التي يتوصل إليها الإحصاء الرقمي أمرا مدركا بالعين المجردة، كما يفضي هذا الإحصاء الرقمي إلى عدم مراعاة التأثير السّياقي للنص الذي يعد مطلبا مهما من مطالب التحليل الأسلوبي([5])، فيغدوبالتالي هذا

---

1 سعد مصلوح: الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، ص:53.

2 يوسف غليسي: مناهج النقد الأدبي، ص:121.

3 سعد مصلوح: في النص الأدبي، دراسة لغوية إحصائية، الهرم، عين للدراسات والبحوث، ط1، 1993، ص: 09.

4 يوسف أبوالعدوس: الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، عمان، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2007، ص:154.

5 المرجع نفسه، ص: 153.

الإجراء مصادرة خطيرة للذوق النقدي الجمالي؛ إذ أن تركيز الأسلوبية الإحصائية على النص من حيث حصره في زوايا وفرضيات ضيقة، كقياس السمات الأسلوبية المشتركة في الاستعمال أوقياس النسبة بين تكرار خاصية أسلوبية وتكرار خاصية أخرى، أوقياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أوعند كاتب معين، أوقياس التوزيع الاحتمالي لخاصية أسلوبية معينة أوغير ذلك من الإحصاءات التي تفضي إلى أهمية بالغة، إلا أنها لا تؤتي ثمارها إلا إذا وُضعت في خدمة النص أووظفت مع غيرها في الكشف عن ظواهر وخصائص فارقة؛ إذ أن التركيز على هذه الخصائص بمفردها دون الأخذ بعين الاعتبار تلك الظواهر الأخرى الموجودة في النص، سيصيب الأخير بأبلغ الضرر، كما يحيله إلى ضرب أشبه بضروب الرياضيات البحتة، إلا أن ذلك لا يعني أبدا التقليل من الجهود التي تبذل في هذا المجال أوعدم الاعتراف بها، بل إنها جهود مثمرة بإمكانها أن تسهم في الكشف عن ظواهر مهمة في العمل الأدبي، إلا أنها لا تستطيع أن تنهض لوحدها بعبء تحليله، بل يمكن ذلك من خلال تظافر هذه الجهود مع جهود المناهج النقدية الأخرى([1]).

ومهما يكن من أمر فإن للإحصاء دور هام في فتح مغاليق النص الأدبي من الناحية لدلالية، بل إنه أداة منهجية تسعى لإدراك الظواهر الفنية إدراكا موضوعيا لكن شريطة عدم اقتصاره على العمليات الحسابية الرقمية المجرّدة، إنما يتجاوزها لتحديد دلالاتها حيث يأخذ بعين الاعتبار وظيفة الذوق الجمالي.

1 فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة، الاسكندرية، منشأة المعارف، دط، دت، ص، ص:14، 15.

قائمة المراجع:

1-أبو العدوس يوسف:الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، عمان، الأردن، دار المسيرة،، ط1، 2007
2-بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، تر:منذر عياشي، لبنان، مركز الإنماء القومي، دط، دت.
3-جان كوهن:بنية اللغة الشعرية، تر:محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، دط، دت.
4-درويش العربي حسن:النقد العربي القديم، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، دط. دت.

5-هلال محمد غنيمي: المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، دط،1958.

6- هنريش بليث:البلاغة والأسلوبية، نحونموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، إفريقيا الشرق، دط، دت.

7- وغليسي يوسف:مناهج النقد الأدبي، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 2007.

8-حسين قاسم عدنان: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، مدينة نصر، الدار العربية، دط، 2001.

8-الحربي فرحان بدري: الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، بيروت، مجد، ط1، 2003.

9-مصلوح سعد: الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، القاهرة، عالم الكتب، دط، دت.
10-مصلوح سعد:في النص الأدبي، دراسة لغوية إحصائية، ، الهرم، عين للدراسات والبحوث، ط1، 1993.

11-السيد شفيع: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، القاهرة، دار الفكر العربي، دط، دت.

12-عيسى فوزي: النص الشعري وآليات القراءة، الإسكندرية، منشأة المعارف، دط، دت.
13-فيصل شكري:مناهج الدراسة الأدبية، القاهرة، مكتبة الخانجي، دط،1953.

14-ضيف شوقي: في النقد الأدبي، مصر، دار المعارف، دط،1962.

النقد الثقافي عند العرب

مديحة عتيق
أستاذة محاضرة
قسم اللغة وآدابها
المركز الجامعي سوق أهراس

الملخص
النقد الثقافي أوالدراسات الثقافية حقل أكاديمي جديد، ترعرع في أحضان النظرية النقدية والماركسية، ويهتم عموما بالطبيعة السياسية للثقافة المعاصرة، وبإشكالاتها وصراعاتها الماضية، وتهدف هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على خلفيات هذه الحقل النظرية، وذكر أهم رواده، وموقف النقاد العرب منه. وركزت المداخلة على بعض أعلام النقد الثقافي العرب وخاصة عبد الله الغذامي في كتابه "النقد الثقافي»الذي أثار ردودا عربية واسعة، تقف المداخلة عند أهم نظريات هذا الكتاب ومصطلحاته وتطبيقاته
الكلمات المفتاحية:النقد القافي –الماركسية–النسق– الثقافة –الميديا– كتابات المرأة–أدب الملونين. الهامشية...

Cultural Studies and Arab critics
Dr. Madiha Atik
Abstract
Cultural studies is an academic field grounded in critical theory and Marxist literary criticism. It generally concerns the political nature of contemporary culture, as well as its past historical precedents, conflicts, and issues.
The paper is an attempt to shed light on Cultural Studies' theoretical background, first pioneers, and some Arab figures in this field. Alghadami's "The cultural Criticism»is a masterpiece in this branch of literary criticism. The paper will focus on the most important theories, terms, keywords in this study.

ما الثقافة ؟

لا يزال الجدال قائما، سواء لدى الغرب أم عندنا نحن العرب حول خطوط الانفصال ونقاط التقاطع بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية، يجمع بينها البعض، ويفرّق بينها البعض الآخر، ويعتبر أحدهما احتواء للآخر لدى فريق ثالث.

ولعلّ أولّ ما يصعّب عملية التعريف، ووضع الفروقات أومبررات التقاطع والتوحيد بين المصطلحين هومصطلح الثقافة في حدّ ذاتها الذي يبدومن أكثر المصطلحات بداهة وغموضا في آن واحد، وهذا ما جعل مؤلفي دليل الناقد الأدبي يحجمان عن وضع تعريف لها لأنها أجلّ وأعقد من ذلك فيقرّان بأن "تعريف مفهوم الثقافة كان أصعب ما واجهته الدراسات، فقد دخلت المفردة والمفهوم المعجم الانجليزي في حقبة الثروة الصناعية، وتأرجح مفهوم الثقافة تبعا للعلاقة التي تربطه بفكر معيّن فإذا كان انتماؤه إلى علم الانتروبولوجيا فانه يختلف عما إذا انتمى إلى الفكر البنوي أومابعد البنوي، والثقافة لا تستعصي على التعريف فحسب وإنما تجعل التعريف ذاته انعكاسا مؤسسا (بالفتح والكسر معا) للبنية الثقافية ذاتها وهذا شأن الثقافة بوصفها مؤسسة متخصصة تفرز آلياتها الخاصة، وهي آليات تجعل من ديمومة الثقافة الخاصة أمرا حتميا "[1]

لا يعاني الأكاديميون وحدهم من زئبقية مفهوم الثقافة بل انتقل هذا القلق إلى الحياة اليومية، فما معني أن تقول عن فلان أنه إنسان مثقف ؟ هل هوالجامعي؟ أم الذي لديه شهادة علمية راقية؟ أم الذي لديه معلومات كثيرة ويحسن الحديث في أطراف السياسة والفن والتاريخ والجغرافيا؟وما معنى نشاطات ثقافية، وبرامج ثقافية أهي معارض الكتاب أم حفلات الرقص والباليه؟

لذا كان أول اهتمامات النقاد الثقافيين توسيع مفهوم الثقافة أوبالأحرى تخطّي الحدود الرسمية بين الثقافة الأكاديمية وثقافة الجماهير وتوضيح الأسباب السياسية/ السلطوية التي جعلت من منتج ثقافي معيّن "مركزيا"ومنتج آخر هامشيا/ شعبيا،واستدل النقاد الثقافيون على سيسنة التراتبيات الثقافية بمسرحيات شكسبير التي تعد الآن في نظرنا ثقافة كلاسيكية بامتياز فقد تبيّن "أنّ بعض مسرحيات شكسبير التاريخية جاءت إلى الوجود كعمل شعبي يستمتع به العمال، ثم أصبحت بعد ذلك عملا مسرحيا منتميا إلى الفنّ الرفيع ليتمتع بها فقط المتعلمون، ثم آلت في فترة لاحقة إلى نسخة فيلمية أنتجت خلال الحرب العالمية الثانية لتصبح شعبية مرة ثانية، هذه المرة لأنها أنتجت

---

1 ميجان الرويلي/ سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، لبنان /المغرب، ط4، 2007، ص140.

وتمت مشاهدتها بوصفها عرضا وطنيّا عن عظمة إنجلترا أثناء زمن الحرب «[1]

هذا الانتقال بين الثقافة المركز وثقافة الهامش هوأهم نقاط أجندة الدراسات الثقافية، وأسباب وجودها في الآن ذاته، فهي تسعى إلى تسليط الضوء على ما تجاهلته المؤسسة الرسمية بدءا بإعلانات كوكا وبيبسي، وروايات الرعب، وشخصية طرزان وبوكيمون وتأثيرها على الجمهور المتلقي، لذا تعرف موسوعة ويكبيديا "الدراسات الثقافية»بأنها "حقل أكاديمي نشأ في أحضان النظرية الأدبية والنقد الأدبي الماركسي، وتعنى بالطبيعة السياسية للثقافة الشعبية المعاصرة، وهذا مايميزوها عن الأنتربولوجيا الثقافية "Cultural Anthropology"يركز الباحثون عن كيفية ارتباط الرسالة/ الوسيط بمسائل الايدولوجيا والطبقة الاجتماعية، والجنسية، والمواطنة (Nationality) والعرقية (Ethnicity) والجنسية، و/أوالنوع"[2] أصبحت الدراسات الثقافية حقلا أكاديميا معترفا به منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين من خلال مركز بيرمنغاهم للدراسات الثقافية المعاصرة (CCCS) الذي أسسه ريتشارد هوقارت (Richard Hoggart)عام1964وسرعان ما خلفه ستيوارت هال Stuart Hall)الذي قدّم خدمات جليلة لترسيخ الدراسات الثقافية كنشاط أكاديمي معترف به دوليا.

في الحقيقة تعود جذور هذا الحقل المعرفي إلى سنوات الحرب العالمية الثانية حين كان روّاد مدرسة فرانكفورت قلقين بشأن ما اعتبروه الآثار المدمرة للثقافة الجماهيرية وخاصة السينما والروايات الشعبية ولم نفترض الدراسات الثقافية بشكل مسبق بأنّ الثقافة الجماهيرية رديئة(...) ومن أهمّ أبعاد تحدّي الدراسات الثقافية لأشكال التراث النخبوي المعتمد في مجال الأدب والفنون والثقافة هوالاتجاه من فكرة موحّدة حول الثقافة إلى فكرة قائمة لأشكال التراث النخبوي المعتمد في مجال الأدب والفنون والثقافة هوالاتجاه من فكرة موحدة حول الثقافة إلى فكرة قائمة على تعددية حول ثقافات تحكمها محدّدات اجتماعات مثل الطبقة، والنوع، والعرق، والانتماءات

1 يوحنا سميث:ما النقد الثقافي؟ ت: أيمن بكر www.dhifaaf.com

2 Cultural Studies , www.wikipedia.org

العرقية«[14] لذا لاعجب أن تجعل الدراسات الثقافية محور اهتمامها هوكتابات الملوّنين، وأدب المرأة، وثقافة الميديا والإعلانات مؤكدة علي دور هذه الأشكال الثقافية في تشكيل الوعي الجماعي وتأسيس الهرم القيمي والشبكة العلاقية بين الأفراد فيما بينهم من جهة وبين الأفراد والسلطة من جهة ثانية، ولم تتطور الدراسات الثقافية من فراغ بل راحت تبحث عن أسس نظرية ترتكز عليها مستفيدة من الماركسية، والكولونيالية، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، وعلم الاتصال، والدراسات الأدبية، وما بعد البنوية، والإثنية معتمدة بطريقتها المرنة، وخاصيتها البينية، وإصرارها على نقض الحدود بين الحقول المعرفية المختلفة، ولن نقف عند مظاهر استفاد الدراسات الثقافية من كل هذه الحقول المعرفية لأنّ المقام لايتسع لذلك، لذا سنكتفي بمثالين، وهما الماركسية والدراسات الأدبية.

الدراسات الثقافية والماركسية:

شكّل الفكر الماركسي الأرضية الصلبة للدراسات الثقافية التي استفادت كثيرا من كتابات باختين وألتوسير وأنطونيوغرامسي، ووالتر بنجامين وغيرهم.

ففي سبعينيات القرن الماضي كانت الأحزاب السياسية التي تخدم الطبقة العاملة في تدهور مستمر مما جعل الملايين من عمال المصانع الانجليزية يصوتون لصالح مارغريت تاتشر، وراح الدارسون الثقافيون في مركز برمنجهام يبحثون عن أسباب التحول والولاء من حزب العمال إلى حزب المحافظين ووجدوا الجواب في كتابات أنطونيوغرامسي الذي شغلته الأسئلة نفسها حين لاحظ أن العمال والبسطاء والفلاحين الايطاليين يصوتون لصالح الأحزاب التي تهضمهم حقوقهم، لذلك عدّ غرامسي»الثقافة وسيلة في الجهاز السياسي والاجتماعي للسلطة من هذا المنظور لا يستخدم الرأسماليون وسائل القمع المعروفة (السجن، الشرطة، الاضطهاد) فحسب لفرض سلطتهم بل أنهم يتغلغلون لثقافة العمال اليومية "[2]

تعنى الدراسات الثقافية حسب غرامسي بكشف آليات أدلجة الثقافة على يد الرأسماليين أوالسلطة بما يخدم توجهها ومصالحها، فهي تكرس عبر الثقافة قيم الخضوع والاستسلام، والتعلق بالربح السريع،

1 كرستين ولدن: الدراسات الثقافية، ت: هاني حلمي حنفي موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي (القرن العشرين: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية) م9، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص248.

2 Cultural Studies , www.wikipedia.org

والنزعة الفردية، والاستغلال، والطبقية لذا نبّه ألتوسيومن جهته إلى خطورة الإيديولوجيا ورأى أنّ بإمكان الثقافة أن تعيد تشكيل علاقات الإنتاج الاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد، وفي السياق ذاته شدّد غرامسي على "الحاجة إلى تعزيز وتطوير الثقافة البورليتالية أي الطبقة العاملة، وأشار لاحتياجنا أن نري النخبة الثقافية بصورة سياسية ونحتاج كذلك لما أطلق عليه نخبة متقفة "راديكالية"عضوية"[1]
كان لجهود الماركسيين دور في إضفاء صبغة أكاديمية على الدراسات الثقافية وجعلها حقلا معرفيا يدرّس بين أسوار الجامعات بداء بمركز برجمنهام منذ عام 1964.

الدراسات الثقافية والأدب:

كانت علاقة الدراسات الثقافية بالأدب علاقة أخذ وعطاء فقد أخذت الدراسات الثقافية من الدراسة الأدبية منهجياتها وأدواتها المنهجية في التعامل مع المادة المدروسة وفي المقابل استفاد الأدب والدراسات الأدبية من معطيات الدراسات الثقافية، وإن كان الأدب في حدّ ذاته قد أصبح محل مساءلة من قبل الدارسين الثقافيين.

في البداية أجمع هؤلاء على رفض الحدود المصطنعة بين ما يسمى بالأدب الرسمي والأدب الهامشي وهذا ما أتاح الفرصة للرواية البوليسية وروايات الرعب والروايات الفيلمية "الروايات التي تحولت إلى نسخة فيلمية «لأن تكون موضوع النقد والدراسات والمساءلة بعد أن كانت قابعة في الظل مدى طويل، وتعتبر دراسات هيلر لرواية الرعب مثالا حيّا لتقاطع الدراسات الثقافية مع الأدب أوما صار يسمّى لاحقا النقد الثقافي فقد قدمت هيلر دراسات جيدة ومميزة لرواية فرانكشتاين، إذ فسّرت شعبيتها بكونها شكلا هجينا أونسخا متنوعا استطاع أن يضفي الإثارة على عاطفة الطبقة (...) وفي عملية استدلالها تقدّم قراءة مدهشة في إبداعيتها، إذ لا تقف ما توضحه فيها عند كيف يقع جدل ثقافي ما في خلفية نص أدبي وإنما تبين كذلك كيف يبدوهذا الجدل متصدرّا ضمن النص حيث تبيّن هيلر كيف أنّ رواية فرانكشتاين هي رواية عن التعليم الجيد والتعليم السيء، أوعن الكتب المفسدة والكتب الجيدة، بل يمكننا أن نلاحظ التحولات الراديكالية لرواية فرانكشتاين على مستوي الدلالة والوظيفة "[2].

---

1 يوحنا سميث:ما النقد الثقافي؟
2 المرجع السابق

لم تكتف الدراسات الثقافية بأن أدخلت بعض النصوص الهامشية إلى مركز النقد والتحليل بل راجعت أيضا وظيفة الأدب ومفهوم "الأدبية"، فلم يعد الأدب وحده وعاء الأفكار، والقيم، والأخلاق، والايدولوجيا، والأشكال العلائقية بين الأفراد والسلطة، بل صار يتقاسم هذه الوظيفة مع السينما، ووسائل الإعلام، والانترنت، والإعلانات وبهذا أصبح الأدب مجرد عملية إنتاجية تخضع لمعطيات الواقع وشروط الإنتاج، فقد وجهت الدراسات الثقافية اهتمامها إلى تحليل وشرح كيفية الكتابة وقراءتها وتوزيعها وتبادلها وتهدد الدراسة الأدبية بعد إعادة صياغتها على هذا النحوبأن تصبح جزءا من ذلك المشروع الفكري الأوسع (...) ويصبح الأدب مجرد بضعة نصوص بين نصوص أخرى "[1].

لاشك أن هذه الاهتمامات الجديدة للدراسات الثقافية تشير إلى تأثرها بعلم اجتماع الأدب وبالضبط أطروحات روبرت اسكاريت الذي اعتبر الأدب سلعة تتحكم فيها أبجديات العرض والطلب، وقوانين السوق والنشر والتوزيع، ولكن مايهمنا أكثر هونظرة الدراسات الثقافية للأدب مقارنة بغيره من الأنشطة الثقافية، فهي تراه جزءا من مشروع ثقافي أكبر تتبناه وتروج له، وتذيب الأدب في ثنايا نسيجه، ولا أدل على ذلك من تغييرها مفهومها للأدبية التي كانت إلى عهد قريب حكرا على النصوص الأدبية الرسمية خاصة، فأفرغت الأدبية من محتواها الجمالي الثابت لتجعلها مجرد تصنيف اجتماعي متغير قابل للتحوير والتمديد والتقليص حسب متغيرات الواقع فلا يزال رواد الدراسات الثقافية يتجادلون حول "ما الذي يشكل المعيارية الأدبية أي قائمة الشرف المكونة من الكتب العظيمة تلك التي تمّ الاتفاق عليها ذات مرة فيما مضى، على أية حال لا يفعلون ذلك بإضافة»كتب وأفلام وأعمال تلفزيونية إلى قائمة النصوص القديمة التي – افتراضا– يجب على كل شخص مثقف أن يقرأها، ولا يفعلون ذلك أيضا باستبدال نوع من المعيارية الثقافية المضادة بهذه القائمة، أنهم بالأحرى يقارعون المعيارية الأدبية القائمة عن طريق نقد فكرة المعيارية نفسها، يريد النقاد الثقافيون أن يبعدونا عن التفكير في أعمال محددة بوصفها أفضل الأعمال التي أنتجتها ثقافة معينة "[2]

---

1 كرستين ولدن: الدراسات الثقافية، ص252.

2يوحنا سميث: ما النقد الثقافي؟

يرى النقاد الثقافيون أن الأدبية صفة متغيرة، وأيّ محاولة لقولبتها في إطار سابق هوتجنّ على المعرفة والذوق في آن واحد، لذا لاعجب أن التصنيف المصطنع بين "أنواع» الثقافة يحرمنا من تلمّس الجماليات الموجودة في الإعلان بقدر ما تحرمنا من مقاربة العناصر الدعائية في النصوص الأدبية.

مآخذ الدراسات الثقافية:

لاتزال الدراسات الثقافية حقلا فتيا لم يمرّ قرن على وجوده والاعتراف به رسميا وأكاديميا، لذا فهوفي مرحلة تطوّر وتشكّل يحاول أن يصطنع لنفسه مناهجه، وأدواته، ومنطقه، ومنطقته مستفيدا في ذلك من حقول معرفية كثيرة – سبق الإشارة إليه. لذا لاعجب أن تكثر الانتقادات التي توجه للدراسات الثقافية تصل في بعض الأحيان إلى حد تجاهلها أوعدم الاعتراف بها.

ومن أهم النقاد الذين تعرضوا بالنقد للدراسات الثقافية نذكر هارولد بلوم "Harold Bloom" ونيري إيجلتون «(Eaglton Tierry" و"بيير بورديو "Pierre Bourdieu»

يهتمّ السوسيولوجي بيريورديوبالسينما، والمتاحف، والآداب الحديثة، وفن التصوير، وهي اهتمامات تقاسمه فيها الدراسات الثقافية التي يعيب عليها افتقادها للمنهجية العلمية الصارمة التي يجب أن تتوفر في أيّ حقل معرفي، أما إيجلتون فهويرى "أنّ الدراسات الثقافية شأنها شأن الدراسات الأدبية يتجاوز طموحها النظري ممارستها التطبيقية لذا فهي لاستطيع أن تتعاطى مع المسائل الرئيسية في الحياة"[1] اذاكانت انتقادات بورديوجزئية وذات أهداف تقويمية بناءة، فإن انتقادات هارولد بلوم كانت لاذعة واستفزازية، بل وصل به الأمر إلى حدّ دعوته إلى حذف الدراسات الثقافية من قائمة البرامج الجامعية لأنها في نظره تعتبر الدراسات الأدبية أداة للتوظيف، والحصول على مكانة في المجتمع وذلك بدل أن تنمّي الذوق الجماهيري لكي يرى "الجمال»في الأعمال الأدبية الجميلة"[2]

الدراسات الثقافية المقارنة (Comparative Cultural Studies):

تفرّغ عن الدراسات الثقافية فرع جديد يدعى "الدراسات الثقافية المقارنة» وقد روّج لها ستيفن توتوسي الذي عرّفها بأنها « مقاربة سياقية تتناول الثقافة بمختلف مكوناتها وآليات إنتاجها، ويرتكز إطارها

1 Cultural Studies , www.wikipedia.org

2 Cultural Studies , www.wikipedia.org

النظري والمنهجي على مجموعة من المبادئ المستعارة من الأدب المقارن،والدراسات الثقافية، ومن مجموعة الأسس المرتبطة بالبنوية، ونظريات الاتصال، والأنظمة، والثقافة، والأدب، وتهتم الدراسات الثقافية المقارنة التي عادة ماترتكز على كيفية تكوين الظاهرة أكثر من الاهتمامات بالمستوى أوالموضوع بالجوانب التطبيقية إلي جانب المنطلقات النظرية والمنهجية "[1]

يتّسم هذا التعريف بالعموم والشمولية كما أن توتوسي قد انطلق من كتابه (الأدب المقارن النظرية والتطبيق والمنهج1998) ليستعير منه أهمّ مبادئه المنهجية ليؤسس من خلاله كتابه «من الأدب المقارن إلى الدراسات الثقافية المقارنة "1999 «وكان ناقما آنذاك على النقاد الثقافيين متّهما إيّاهم بالسطوعلى أهمّ مباحث الأدب المقارن كالحكايات الشعبية والأساطير ليضمّنوها أبحاثهم في الدراسات الثقافية ولكن تومو فيرك أستاذ الأدب المقارن في سلوفينيا يهاجم توتوسي ويتّهمه في دراسته المعنونة بـــ «الأدب المقارن في مواجهة الدراسات الثقافية المقارنة «بأنه أفرغ الأدب المقارن من طبيعته الأدبية، إذ اكتفى توتوتسي بتحويل كلمة "أدب»إلى كلمة "ثقافة»ليجعل من المبادئ التي وضعها لتحديد الأدب المقارن أساسا للدراسات الثقافية المقارنة، بالإضافة إلى ذلك يؤكد فيرك أنّ الأبحاث التي قام بها توتوسي في إطار ما يسميه الدراسات الثقافية المقارنة تدخل كلّها في الواقع ضمن ميادين البحث في الأدب المقارن"[2]

تتأكد لنا هذه الفكرة حين نتذكر أهمّ مباحث الأدب المقارن كما تصوّرها المدرسة الأمريكية، ونعني علاقة الأدب بالفنون (كالرسم والنحت والسينما)، والعلوم الإنسانية (كعلم النفس، وعلم الاجتماع والميثولوجيا والإنترولوجيا) والفلسفة وعلوم التقنية (الإعلام الآلي والرياضيات)بالإضافة إلى الأساطير والدراسات الترجمية، ولا تكاد الدراسات الثقافية المقارنة تزيد شساعة واحتواء أكثر من هذه الموضوعات، ورغم ذلك جاءت الدراسات الثقافية المقارنة لتطلق رصاصة الرحمة في جسد الأدب بعد أن حوّلته إلى مجرد وعاء كغيره من النشاطات الثقافية يحمل قيم وتقاليد ومعارف العصر، وبعد

---

1 مسعود عمشوش:من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن، تحولات الخطاب النقدي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي، الأردن، 2006، دار الكتب الحديث، الأردن، 942.

2 مسعود عمشوش:من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن،ص944.

أن غيرت مفهوم الأدبية، ووسعت دائرة الاهتمام من التركيز على النصوص فحسب إلى الانشغال بعملية الكتابة والنشر، والتوزيع، والجمهور المتلقي وهذا ما جعل كثيرا من النقاد ينادون بموت الأدب بعد أن نادى غيرهم منذ زمن بموت المؤلف ثمّ بموت النص.

وبعد، ما موقف النقاد العرب من هذا الحقل المعرفي المستحدث؟ كيف استقبلوه؟ وكيف تعاملوا مع المصطلح وإلى أيّ مدى ساهموا في إثراء الموضوع تنظيرا وتطبيقا؟.

الدراسات الثقافية عند العرب:

عرفت الدراسات الثقافية في أغلب الكتابات النقدية العربية باسم النقد الثقافي، وقليلون من النقاد العرب من ناقش علاقة الدراسات الثقافية بالنقد الثقافي وكأنهم قد حسموا الأمر بأنهما وجهان لعملة واحدة، ويرى مؤلفا "دليل الناقد الأدبي»أن النقاد العرب قد اشتغلوا بالحديث والكتابة عن الثقافة بمفهومها الواسع محاولين استكشاف مقوّمات الثقافة العربية «فما يكتبه طه حسين في كتاب "في الشعر الجاهلي"أوفي "مستقبل الثقافة في مصر»نقد ثقافي مثلا ونجد كذلك كثيرا مما نشره العقاد وجماعة الديوان ، وبعض المهجرين ثم نقد أدونيس في (الثابت والمتحوّل) بل وكتابات بعض الباحثين المعاصرين "كعبد الله العروي ومحمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن وهشام جعيط، وفهمي جدعان، وعلي حرب، ومحمود أمين العالم (...) كما يندرج ضمن النقد الثقافي ماأسماه هشام شرابي بالنقد الحضاري "[1].

ويعتبر مؤلفا الدليل أن الانطلاقة الحقيقية للنقد الثقافي عند العرب تبدأ مع عبد الله الغذامي في كتابه الشهير (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية "2000") مميزين بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي معتبرين الثانية حركة طارئة على الأولى.

وقبل أن يؤلف الغذامي كتابه «النقد الثقافي «الذي يعد كتابا تأسيسيا وياديا في الثقافة العربية فإن الباحثين المقارنين العرب أول من أشاروا إلي الدراسات الثقافية فهذا حسام الخطيب يعتبرها منافسا حيويا للأدب المقارن، كما أوضح ذلك في ورقته التي قدمها في أعمال ملتقي (قضايا الأدب المقارن)الذي انعقد بالقاهرة عام "1995 "حيث أشار إلى أن الدراسات الثقافية لاتنظر بعين الرضي إلى الأدب المقارن "إذ تعتبره دراسة شكلية خارجية تحتاج إلى مضمون جادّ

---

1 ميجان الرويلي/ سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي،ص309.

فكري واجتماعي وربّما ترشّح نفسها للحلول محلّه واحتوائه، وتنتعش هذه الدراسات منذ نهاية التسعينات وتخوض مغامرات تحليلية وربطية واسعة، ولكنها مازالت تقوم على جهود أفراد جادّين يجمع بينهم التآلف العام، وإن لم تنتظم بعد في إطار نظري متماسك "[1]

يزداد حسام الخطيب حماسا للدراسات الثقافية حين يؤكد على أهميتها في ثقافتنا العربية لأنها تراهن على قضايانا المصيرية كثنائية «الأنا والآخر «و»الأصالة والمعاصرة "ولأنها من الممكن أن تثمر نتائج مثيرة، إذ اتفقت مع انشغالات الأدب المقارن، وإن كانت تحاول أن تحل محلّه كما أشار إلى ذلك منذ قليل وهذا يعني أن حسام الخطيب لايقف موقفا ضديا من الدراسات الثقافية وإن كان ينتصر بطبيعة الحال للأدب المقارن حيث يرى أنه يجدر به «أن يظهر المزيد من الاهتمام بالقضايا الإنسانية الكبرى التي تشغل ساحة الدراسات الأدبية الجديدة مثل مضاعفة التصدي للمركزية الأوربية والغربية "...»ومكافحة التميز العنصر الثقافي بكل أشكاله ومتمثلاته والحلول دون انقسام العالم ثقافيا إلى طبقة فائقة الغنى والموارد الطبيعية ومقابلها طبقة تحت حزام الفقر، وكشف الغطاء عن الثقافات المهضومة وتهوية تجارها، والإفادة من جميع ثقافات العالم، يصعب اتهام الأدب المقارن بأنّه مقصّر في هذا المجال، ولكن يصعب كذلك اعتباره رائدا، والمطلوب من الأدب المقارن ألا يكون أقلّ من تلك الأنساق الأدبية الأخرى تركيزا على هذه الموضوعات الإنسانية "[2].

إذ كان حسام الخطيب قد تحدث عرضا عن الدراسات الثقافية في ثنايا كتاباته المقارنة فإن زميله المقارن عز الدين المناصرة يفرد لها كتابا مستقلا بكتاب «"لنقد الثقافي المقارن»قسمه إلى أحد عشر فصلا، سنذكر عناوينها لنعرف مساحة النقد الثقافي ضمن هذا الكتاب:

الفصل الأول:تفاعل المراكز والأطراف

الفصل الثاني التفاعل المتبادل بين اللغات

الفصل الثالث: بيان الأدب المقارن

الفصل الرابع: الأدب المقارن في النصف الثاني من القرن العشرين

الفصل الخامس: النقد المقارن في ألمانيا

الفصل السادس: ما بعد نظرية الأدب

1 حسام الخطيب: الأدب المقارن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أعمال ملتقى قضايا الأدب المقارن (تحرير أحمد عتمان)، القاهرة، 1998 ص46.

2 مسعود عمشوش: من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن، ص944.

الفصل السابع: بدايات الأدب المقارن في البلدان العربية
الفصل الثامن:الأدب المقارن في الجامعات العربية
الفصل التاسع: تطبيقات في النقد المقارن
الفصل العاشر: النص. ..والآخر
الفصل الحادي عشر: وثائق الأدب المقارن"[1]

نلاحظ أنّ النقد الثقافي المقارن شغل الفصل السادس فقط من الكتاب، وقد عالج فيه الكاتب أطروحات ثقافية عامة، لا تكاد تخرج عن تعريف النقد الثقافي ، وظروف نشأته، . ..وذلك ضمن عناوين فرعية هي:1-إيزابير غوالنقد الثقافي 2-الإمبريالية والثقافة:قضية مجلة حوار اللبنانية (1962-1967)3- الإمبريالية والثقافة: المثقفون والحرب الباردة الثقافية 4- النسوية والنقد النسوي..وما بعد النسوية

5- **خلاصة: تفكيك جدلية الثقافي والأدبي.**

لم يتجاوز الكاتب ما هومتناثر في الكتابات الغربية التنظيرية، أما باقي الفصول العشر، فظلت تدور في فلك الأدب المقارن في شقه التقليدي (المدرسة الفرنسية)بما في ذلك الفصول التطبيقية، فقد اختار الباحث موضوعات بليت بين أقلام المقارنين العرب على نحو: (بجماليون توفيق الحكيم وبرنارد شو)، (الموشحات وشعر التروبادور)، (أثر وليام فولكنر في (ما تبقى لكم) لغسان كنفاني)وغيرها من المواضيع التي تطارحها المقارنون العرب منذ خمسينيات القرن العشرين.

لم نعثر في كتاب المناصرة على دراسة تطبيقية حول الأنشطة الثقافية "الدنيا» كالإعلانات، والسيناريوهات التلفزيونية، والثقافة الشعبية كما تدعوبذلك "الدراسات الثقافية»رغم أنّ الأدب المقارن في شقه التجديدي (المدرسة الأمريكية) دعا إلى انفتاح الدراسة الأدبية على الفنون وباقي الحقول المعرفية.

بدا مصطلح "النقد الثقافي المقارن»مجرد بديل اسميّ /شكلي لمصطلح الأدب المقارن، ولا أدلّ على ذلك من الفصل الحادي عشر الذي جاء توثيقيا لمنجزات المقارنين طوال نصف قرن من الزمان.

وإذا كان المناصرة أغرق في الأدب المقارن على حساب النقد الثقافي المقارن، فإنّ زميله المقارن الجزائري حفناوي بعلي قد أغرق في الدراسات الثقافية على حساب النقد الثقافي المقارن في كتابه "مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن»حيث طرح موضوعات النقد الثقافي

---

1 عز الدين المناصرة:النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2005(الفهرس)

/الدراسات الثقافية موضوعا تلوالأخر بتفصيل واف، ودفع ببعض المصطلحات الجديدة إلى الواجهة على غرار النقد الأيكولوجي الذي "يناقش أخلاقيات البيئة، والواجبات، والضمير البيئي، وتقديم جملة من الأهداف الوجدانية (...) تنمية الاتجاه نحوالرؤية المستقبلية للآثار البيئية على الأخلاق بالأنظمة البيئية"[1]، لكن في المقابل ظلّ الكتاب مثقل بمصطلحات كثيرة ملغزة لم يشفعها الباحث بتعريف واف، ومن ذلك:الأنتربولوجيا اللغوية الرامزة المقارنة، التاريخانية الجديدة، دراسات سياسة العلوم، وغيرها...والأهمّ من هذا أنّ الباحث لم يتطرق إلى مباحث النقد الثقافي المقارن التي تميّزه عن النقد الثقافي، بعبارة أخرى بدت كلمة "مقارن»دخيلة على عنوان الكتاب ومحتواه، بل جاءت طفيلية ولا محلّ لها من الإعراب..

عبد القادر الرباعي / تحولات النقد الثقافي:

كتب الدكتور عبد القادر الرباعي مؤلفا بعنوان "تحولات النقد الثقافي»لكن حين نتصفح الكتاب نجد العنوان يغطي الفصل الأول من الكتاب فقط، فقد عالجت الفصول الثلاثة الأخرى قضايا (التأويل، دراسة في المصطلح)، (قراءة في لغة الاختلاف النقدي)، (القارئ الضمني)

وبالنسبة إلى فصل (تحولات النقد الثقافي) فقد عالج فيه الكاتب تاريخ ظهور النقد الثقافي ضمن دعوات صاخبة تنادي بموت الأدب لأنّه غدا سلعة كاسدة لا تلقى رواجا «قال أحدهم عام 1982واسمه (ليس فيدر) لست آسفا لأن أرى أدب الثقافة العالمية يهوى من عليائه، فيموت ثمّ ألّف كتابا يستخفّ فيه كلّ ما جاء به الأدب، متسائلا:ماذا كان الأدب؟، وهذا تيري إيجلتون صاحب كتاب "نظرية الأدب»الذي ألفه عام 1989، قال بالحرف (لقد بدأت هذا الكتاب بمحاولة تبيان أنّ الأدب ليس موجودا، فكيف بالنظرية الأدبية أن توجد إذن؟!"[2]

ويشرح الرباعي وجهة نظر الغربيين بأدلّة واقعية، فالعالم تشغله قضايا الرؤوس النووية الحربية، وتغيرات المناخ، ولغز موت مايكل جاكسون، وحفلات مادونا - وكلّها تقدّم طرحا ثقافيا معينا - أكثر مما تشغله المرشّحين لجائزة نوبل للأدب لهذا العام، أضف إلى ذلك أنّ المنشغلين بالأدب قلّة قليلة من الأكاديميين والطلبة، فمن باب

---

1 حفناوي بعلي:مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف(الجزائر)، الدار العربية للعلوم- ناشرون (لبنان)، ط1، 2007، ص 17.

2 عبد القادر الرباعي: تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، 2008،عمان، ص08.

الديمقراطية، علينا أن نغلّب اهتمام الأغلبية على الأقلية، لذا يأتي النقد الثقافي بديلا طبيعيا للنقد الأدبي – كما يشرح الرباعي – مستفيدا من مفهوم "الثقافة»العائم الذي يستوعب كلّ نشاط فكري يمارسه الإنسان.

يقدّم الرباعي لمحة تاريخية مكثّفة لتاريخ النقد الثقافي مركّزا على جهود روّاده بدءا بويليامز(Williams) مرورا بأنتوني إستهوب (Antony Easthope) الذي ركّز على الثقافة الشعبية، فأدب النخبة قد مات – في رأيه- وحلّت محلّه ثقافة العموم، ولا أدل على ذلك من أنّ الروايات الشعبية تحقق مبيعات خيالية مقارنة بالكتابات الأكاديمية الرصينة، كما توقّف الرباعي مطولا مع أطروحات تيري إيجلتون الذي اتّخذ موقفا عدائيا وساخرا تجاه الأدب، ودعا إلى أن تحلّ الدراسات الثقافية محلّه، ونبّه الرباعي إلى تناقضات إيجلتون ونزوعه اللاشعوري نحوالأدب "الأمر الغريب في مشروع إيجلتون هوما نلمسه من تناقض أحيانا في بعض أطروحاته، فمن ذلك ما رأيناه من إلحاحه الثابت على موت الأدب لمصلحة الثقافة، لكنّه مع ذلك يؤكّد أهميّة اعتماد الدب في تعليم الأطفال بخاصة لكونه مثاليا، ولما فيه من طوباوية (...) ولعلّ أوضح مثال على أهميّة الأدب الكامنة في لاشعوره خاتمة الكتاب الذي عبّر عن كلّ هذا الجديد الذي طرحه بقطعة أدبية خالصة دون أن يدري أنّه بها أثبت أنّ الأدب حيّ في وجدانه "[1].

كما يستعرض الرباعي أفكار توماس كوهين (Thomas Kuhn) الذي رأى أنّ طغيان الميديا وثقافة الصورة (التلفزيون، الفيديو، الأجهزة السمعية البصرية...)خلق صعوبة في القراءة لكلّ شيء مكتوب بما في ذلك الأدب.

قدّم الرباعي مسحا تاريخيا لمنعرجات الدراسات الثقافية عند الغرب مشيرا إلى مواقف روادها من الأدب التي تراوحت بين التطرّف والاعتدال وختم بحثه بإصراره على أنّه من أنصار الأدب لأنّ الأدب جزء من تكويننا الإنساني ولأنّ المؤسسة الأدبية مصرّة على الثبات والمقاومة، ولا يفوت الرباعي الفرصة للتأكيد على أنّ النقد الثقافي مازال فرعا حديثا لم يشتدّ عوده بعد، ولم تكتمل ملامحه، لذا لا عجب أن يشتكي من فوضى المنهجية، وضبابية الرؤية، لذا عدّ التأثر به الدعوة إلى إحلاله محلّ النقد الأدبي موقفا متسرّعا، ولا يفي الرباعي أنّه يقصد بإشارته الغامزة عبد الله الغذامي حين ذكره

1 عبد القادر الرباعي: تحولات النقد الثقافي، ص26.

صراحة، ونبّه إلى أنّ تسرّع في تبنّي مقولات النقد الثقافي والتحمّس الشديد له في كتابه الشهير "النقد الثقافي»الذي أخّرنا الحديث عنه رغم أهميته وريادته بل لهذه الأسباب أجّلناه حتى نقف معه مطوّلا

عبد الله الغذامي / النقد الثقافي:قراءة في الأنساق الثقافية العربية:

لا شكّ أنّ مصطلح "النقد الثقافي»يستدعي إلى الذاكرة النقدية العربية الناقد السعودي عبد الله الغذامي الذي يعدّ رياديا في هذا المجال من خلال كتابه النقد الثقافي:قراءة في الأنساق الثقافية العربية (2000)، ولعلّ أول نقلة نوعية قام بها الغذامي مقارنة بأقرانه العرب هوجمعه بين التنظير والممارسة، فبعد أن عرّف بالنقد الثقافي، واستجلى ذاكرة المصطلح تاريخيا ونقديا طبّق مقولات النقد الثقافي على بعض "أشكال»الثقافة النقدية العربية باحثا عمّا يسمّيه "الأنساق".

اصطنع الغذامي لمشروعه الثقافي – وهويعني تطبيق مقولات النقد الثقافي على بعض الثقافة النقدية العربية– مصطلحات جديدة من اجتهاده الخاص، وأهمّها:عناصر الرسالة (الوظيفة النّسقية)– المجاز (المجاز الكلّي) – التورية الثقافية – نوع الدلالة – الجملة الثقافية – المؤلف المزدوج.

يؤكّد الغذامي أنّ هذه المصطلحات ليست منبثقة من العدم بل هي انعكاس لقناعته بضرورة الانتقال من "الأدبي»إلى "الثقافي، لذا جاءت هذه المنظومة الاصطلاحية نقلة نوعية من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي، وسنعرّف باختصار هذا الجهاز الاصطلاحي حتى نتمكّن من مناقشته:

عناصر الرسالة النّسقية:

يشير الغذامي إلى نموذج جاكبسون اللغوي الذي يتكوّن من ستة عناصر هي:المرسل والمرسل إليه، والرسالة، التي تتحرّك عبر السياق والشفرة، ووسيلة كلّ ذلك هي أداة الاتصال، ويعيب الغذامي على نموذج جاكبسون تركيزه على "الأدبية"، لذا يقترح عنصر سابع، وهو"النسق»(الوظيفة النّسقية)، وهومصطلح جوهري في مشروع الغذامي الثقافي، لذا فهولا يعرّفه بقدر ما يشرح خصائصه، فهو»يتحدّد عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرّد، والوظيفة النّسقية لا تحدّد إلا في وضع محدّد ومقيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أونظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر، والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد أوما في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا وأن يكون جماهيريا،

ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي، وإنّما الجمالي هوما اعتبرته الرعية الثقافية جميلا"[1].

ويوضّح الغذامي أنّ الوظيفة النّسقية تتحدّد عندما يكون هناك نسقان يحدثان معا، ويكون أحدهما مضمر وهونقيض ومضاد للعلني، فإن لم يكونا متناقضين فإنّهما سيخرجان من دائرة النقد الثقافي، كما يؤكّد الغذامي على النص لا بدّ أن يكون جماليا، لأنّ الجمال هوالوسيلة الخطيرة والخادعة لتمرير أنساق مفخخة، ويلحّ الغذامي على أن يكون النص جماهيريا، يحظى بقبول الجماعة حتى لا نقع في فخّ الاستثنائي، والشاذ، والخاص.

كما يؤكّد الكاتب على أنّ "النسق هنا من حيث هودلالة مضمرة، فإنّ هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنّها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتّاب وقرّاء، (...) والأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية، أزلية ، وراسخة، ولها الغلبة دائما، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق"[2]

يشبه النسق – في رأيي– مفهوم اللاوعي الجمعي الذي روّج له كارل يونغ في مدرسة التحليل النفسي، إذ يتقاسمان فكرة الحضور الجماعي، والتغلغل اللاواعي، والتراكم الزمني، أي امتداده وتناقله عبر الأجيال، ومع ذلك أخذ على هذا المصطلح (النّسق) غموضه وعموميته خصوصا أنّ الغذامي يكثر من الاشتقاق منه، لذا فلا يزال هذا المصطلح يثير إلى حدّ الآن تساؤلات النقاد العرب، ويدفعهم إلى أن يضعوا له عشرات التأويلات..

المجاز الكلّي:

ينطلق الغذامي من مفهوم المجاز البلاغي الذي يدور حول الاستعمال المفرد للفظة أوالجملة ليؤسس مجازا كلّيا يدور حول الخطاب الذي «يحمل بعدين أوّلين أحدهما حاضر وماثل في الفعل اللغوي المكشوف وهوالذي نعرفه عبر تجلّياته العديدة الجمالية وغيرها (...) وبعد آخر يمسّ (المضمر) الدلالي للخطاب، هذا المضمر الفاعل والمحرّك الخفيّ

---

1 عبد الله الغذامي:النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي ط1، المغرب /لبنان، 2000، ص77.

2 عبد الله الغذامي:النقد الثقافي، ص77.

الذي يتحكّم في كافة علاقاتنا مع أفكار التعبير وحالات التفاعل وبالتالي فإنّه يدير أفعالنا ذاتها، ويوجّه سلوكياتنا العقلية والذوقية "[1].

ويعدّ "المجاز الكلي»خطوة متقدّمة أخرى للانسلاخ عن النقد الأدبي والاتجاه صوب النقد الثقافي لأنّه يمكّننا من كشف الازدواج الدلالي الخطير الذي يتلبّس خطاباتنا الثقافية متقنّعا ببرقع الجمالي والبلاغي.

التورية الثقافية:

تعني التورية بلاغيا احتواء المفردة أوالجملة معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، وعادة ما يكون هذا الأخير هوالمقصود، ويعيب الغذامي على هذا المفهوم البلاغي دورانه في مجال الوعي لذلك يقترح مفهوم "التورية الثقافية»«لتدلّ على حال الخطاب إذ ينطوي على بعدين أحدهما مضمر ولاشعوري، ليس في وعي المؤلف، ولا في وعي القارئ، هومضمر نسقي ثقافي، لم يكتبه كاتب فرد، ولكن انوجد عبر عمليات من التراكم حتى صار عنصرا نسقيّا، يتلبّس الخطاب ورعيّة الخطاب من مؤلفين وقراء"[2]

الدلالة النّسقية:

يظلّ الغذامي يمارس لعبة ثنائية (المضمر/المعلن) سواء تعلّق الأمر بالمجاز أوالتورية أوحتى الدلالة، وهذه الدلالة ليست معنى مبتكرا، وما يستحدثه الغذامي هونوع ثالث من الدلالة يدعوه "الدلالة النّسقية»التي تعزّز مشروع إضافة العنصر السابع (النّسق)، لذا فهي "ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكّل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا، ولكن بسبب نشوئه التدريجي تمكّن من التغلغل غير الملحوظ، وظلّ كامنا هناك في أعماق الخطابات"[3]

تتميّز الدلالة النّسقية بقدرتها على الاختباء والكمون تحت طبقات "الجمالي"، وتتّسم بتجذّرها المتغلغل في أعماق تفكيرنا وقدرتها على التحكّم في نظرتنا للأشياء..

الجملة الثقافية:

إذا كانت الدلالة الصريحة تستند غلى الجملة النحوية، والدلالة الضمنية تستند إلى الجملة الأدبية، فإنّ الدلالة النّسقية تستند إلى ما يسمّيها الغذامي "الجملة الثقافية "، ويعرّفها بأنّها «مفهوم بمسّ الذبذبات

---

1 م، س، ص69.

2 م، س، ص76.

3 م، س، ص72.

الدّقيقة للتّشكّل الثقافي الذي يقرن صيغه التعبيرية المختلفة"[1]، ويغلب على هذا التعريف الغموض والإبهام، ولكنّ الغذامي يعد بأن يشرح الغوامض في الجانب التطبيقي من الكتاب.

المؤلف المزدوج:

هناك مؤلفان – في نظر الغذامي – المؤلّف المعهود بمختلف تصنيفاته (الضمني، والنموذجي، والفعلي..)، ومؤلف مضمر هوالثقافة ذاتها، بعبارة أخرى تصبح "الثقافة نوعا من المؤلف النّسقي كما هوالشأن في حركة النّسق ومفعوله المضمر"[2]. لذا يغدوالمؤلف المعهود نتاجا طبيعيا للمؤلف المضمر.

يؤخذ على جهاز الغذامي الاصطلاحي غموضه وضبابيته وضعف قوته الإقناعية، فلا نكاد نلمس فرقا حقيقيا بين التورية البلاغية والتورية الثقافية، أوبين الدلالة الضمنية والدلالة النّسقية، أضف إلى ذلك أنّ كلّ هذه المفاهيم تستند إلى مفهوم "النّسق»وهوفي طرح الغذامي غامض ومتذبذبا لذا سهر النقاد جرّاه يختصمون، لذا وصفه عبد النّبي إصطيف بأنّه "عقب أخيل «الذي حول دون انطلاق مشروع الغذامي الثقافي بديلا عن النقد الأدبي، كما يعيب إصطيف على الغذامي إجراءات إقحامه على نموذج رومان جاكبسون، "فكيف يمكن لناقد أن يضيف عنصرا جديدا على نموذج اختطّه عالم لغة مقارن، خبير بعدد من اللّغات، والتقاليد الأدبية والنقدية دون أن يفكّر في عقابيل هذه الإضافات"[3]

هذا ما يمكن قوله – قدر ما يسمح به هذا المقام – حول الجانب الاصطلاحي /التنظيري لكتاب الغذامي، أمّا عن الجانب التطبيقي فذلك بداية حديث آخر.

قرأ الغذامي شعر عمر بن كلثوم والفرزدق وجرير وأبي تمام وأدونيس وكتابات ابن المقفع والجاحظ والتوحيدي قراءة ثقافية أوصلته إلى نتائج ما كان ليصل إليها – كما اعتقد- لواكتفى بالنقد الأدبي، ومن تلك النتائج أنّ الحداثة العربية حداثة رجعية، وأنّ الشعر العربي قد جنى على الشخصية العربية، وأنّ الثقافة العربية منبت خصب لمفهوم "الفحل»و"الطاغية"، وأنّ..وأنّ..وأنّ..

---

1 م، س، ص77.

2 م، س، ص79.

3 عبد النبي إصطيف /عبد الله الغذامي / نقد ثقافي أم أدبي، دار الفكر، سوريا، 2008،ض195.

وفي الحقيقة لم تكن هذه نتائج وصل إليها الباحث في خاتمة كتابه الذي تجاوز الثلاثمائة صفحة بقدر ما كانت فرضيات ونتائج أوّليّة وضعها الكاتب في مقدّمة كتابه وبدايات فصوله وراح يبحث لها في المدوّنة العربية الأدبية – قديمها وحديثها – ما يعزّز طرحه ويدعّم حججه، لذا جاءت شواهده انتقائية، ومبتسرة من سياقها «وذلك بحثا عن الجملة الثقافية التي لا يستخرجها الناقد من سياقها الأدبي، وإنّما من انطباعاته هوحول القيم السلبية التي يتضمّنها الخطاب الأدبي وغير الأدبي، وذلك على الرغم من محاولته إثبات العكس»[1]

وحتّى النتائج التي وصل إليها الغذامي من خلال قراءته النقدية /الثقافية محلّ نظر وتساؤل، فقول الغذامي أنّ المديح العربي شعر تكسّبي هي مقولة معروفة في معظم الثقافات فطالما ضمّ البلاط الروماني، والإنجليزي، والفرنسي شعراء جوّالين تكسّبيين، كما أنّ طغيان "الفحولة»على معظم أنشطتنا شيء يعرفه الجميع لكثرة ما ردّد في الثامن من مارس من كلّ عام..

أراد الغذامي أن يحرّر مفهوم "الأدبية»من النقد المؤسساتي الرسمي الذي يقصرها على الأدب – شعرا ومسرحا ورواية – ليربطها بثقافة العموم والمهمّشين، لكن الغذامي ضيّق مفهوم "الأدبية «أكثر مما كانت عليه، إذ كاد أن يقصرها على الشعر فحسب دون باقي الأجناس الأدبية، إذ أعطاه دورا كبيرا في رسم سلوكنا العربي مما أوقعه في تناقض حين عاب على أدونيس تمركزه في الشعر ليقع هونفسه في المنزلق ذاته مما جعله يصدر أحكاما تعميمية، «وهذا يؤكّد وجود مغالطات منهجية تخصّ قراءة الواقع نفسه، وتظهر افتقار الغذامي أدوات البحث المنهجي الذي تفترضه القراءة الاجتماعية. .."[30]

يبقى كتاب الغذامي محاولة جادة ومثيرة للجدل والمناقشة، فبعد مرور عقد من دعوته لمشروعه الثقافي، لا تزال المؤتمرات والندوات تعقد، ورسائل الماجستير والدكتوراه تحضّر لمناقشة مشروعه والوقوف على مكامن قوته وضعفه.

الخاتمة:

لا يزال النقاد العرب يقاربون النقد الثقافي بكثير من الحذر والحرج، فهذا المجال لا يزال حديثا وضبابيا حتى في بيئته الغربية، لذا جاءت كتابات

---

1 رفيف رضا صيداوي: النقد الثقافي للغذامي بين الممارسة والتطبيق، الجزيرة الثقافية، 12/03/ 2007، ع190، ص12

النقاد العرب متشابهة ومكرورة تدور كلّها حول نشأة النقد الثقافي ودور مركز برمنجهام، وفروع الدراسات الثقافية وما قاله ويليامز، وهوقارت وغيرهما من الرواد أمّا الجانب التطبيقي فقد أحجم معظم النقاد العرب عن الخوض فيه، وذلك لتحرّجهم في التعاطي مع "الثقافة الدنيا»كالإعلانات التلفزيونية، والسيناريوهات، والأغاني الشبابية، وهي موضوعات قد تثير حفيظة النقاد المتحفظين، وقد تثير سخرية البعض الآخر، فلا أعتقد أنّ تقديم مداخلة في قسم الأدب العربي حول إشهارات « Fair and Lovely»أو"Lux»أو"دور أغاني تامر حسني أونانسي عجرم في لغة الشباب»قد تمرّ آمنة دون أن تعرّض صاحبها للتعليقات والسخرية..